الحقيقة الغائبة

هدى مرسي

فادية مصطفى شابة في عقدها الثالث، متوسطة الجمال، تعيش مع والدها بعد أن توفت والدتها، من أسرة متوســـطة الحال، تعمل في إحدى الشركات الاستثمارية، تعيش حياة هادئة نوعا ما، تذهب إلى العمل في الصــباح وتعود في المســاء، في إحدى الأيام وهي تعمل في مكتبها أرســـل المدير بطلبها، ذهبت إليه وهي تفكر فيما يريده، فليس لديها أي عمل هام، وصـــلت غرفة المدير دقت الباب ودخلت،

فادية: علمت أنك تريدني.

المدير: تفضلي بالجلوس.

كلمت فادية نفســـها بتعجب: منذ متي؟ ألســـت من تتكبر علينا! المهم سأجلس، جلست على الكرسي بجوار المكتب.

دخلت فتاة في عقدها الثاني، سلمت علي المدير وجلست.

المدير: هذه ابنتي دنيا، كنت أريد منك مساعدتها.

فادية بتعجب: أساعدها في ماذا؟!

المدير: هي ستخبرك اذهبي معها فقط.

دنيا: أريد مساعدتك فأنا أقوم بعمل دراسات عليا، وأريد منك بعض المعلومات.

فاديه بتعجب: لا أفهم فيما سأفيدك! ولكن حسنا سأذهب معك.

المدير: لديك إذن بساعتين ،لا تتأخري بعدهم.

فاديه وهي تكز على أسنانها غيضا: حاضر سيدي.

وتحركت مع ابنة المدير، وهي تهمس غاضـــبة: حتى عندما تفعل شيئا جميلا تفسده.

دنيا بابتسامة هادئة: سنذهب إلى أحد المطاعم القريبة نجلس فيه ونتحدث.

خرجت معها فاديه، دون تعليق سـارتا دون أي حديث حتى وصـلتا إلى المطعم، دخلتا وجلستا على إحدى الطاولات.

فاديه بحيرة: هل يمكن أن تخبريني بماذا أساعدك؟

دنيا بحرج: أنا أقوم بعمل دراســة عن تأخر الزواج ،وقال والدي أنك قد تفيدني.

فاديه لنفسها بالم وحسرة: كم هذا مؤلم، لقد أصبحت حالة تدرس، وكأني فار تجارب، أغمضـــت عينها بألم تحاول منع دموعها من السقوط.

تحدثت فاديه بضـــيق وألم شـــديد: فهمت الآن، لا مشـــكلة سـأسـاعدك، أخذت نفسـا عميقا وسـكتت قليلا ثم أكملت بمراره: أعرف ما يقال عن الفتيات مثلي، يقال عنها عانس وكأنها المذنبة، الملامـة، لا أعرف على مـاذا، هـذه الكلمـة التي تقتـل الكثير من القلوب، ولكن الحقيقة أن من تأخرت في الزواج ليسـت عانسـا إنما هي فتاة نجت من مصير مرير وصلت إليه بعض الفتيات اللائي أردن ان يهربن من هذه الكلمة بأي شـكل، فكان الثمن حياتها لا هي ظلت فتاة، ولا هي مستقرة في زواجها.

دنيا بعدم فهم: هلا أوضحت كلامك؟

فاديه بنظرات منكسرة متألمة: سأحكي لك قصتي، وقد تفهمين منها ما أقصد، أخذت نفسا عميقا وأكملت، بعد أن تخرجت من الجامعة عملت في الشركة، كان راتبي كبير، كان كلما اتي لي خاطب يرفضه أبي ويقول إنه طامع في مالي، لم أكن أعترض، كنت أشـــعر بذلك فكل واحد منهم يعمل براتب بسيط ويريد من تساعده، وحتى أوضح لك أنا لا أرفض مســـاعدة الزوجة لزوجها ولكن أرفض أن يكون هذا سـبب الزواج الأول، في يوم بعد عودتي من العمل شـعرت أن هناك شـــيئا غريبا في البيت، كان هذا اليوم هو بداية معاناتي الحقيقية وفهمي للحقيقة، اعتقد كنت بعمرك الان وقتها, عادت إلى الخلف (اغمضـــت عينها واخذت نفســـا عميقا وبدأت تتذكر كل ما حدث بحسرة وألم ووجع كل الأعوام التي مرت)

****

دخلت فادية الشقة.

فاديه: السلام عليكم يا أمي.

والدة فاديه (فاطمة): وعليكم السلام ابنتي، هيا ادخلي بسرعة غيري ملابسـك، فسـيأتي لنا ضـيوف بعد قليل، ويجب أن تكوني في أبهى حلة.

فاديه زامة شـــفتيها: يبدو أنه خاطب جديد، كم هذا الأمر مرهق ومؤلم؟ كل مرة يأتي الخاطب ويعطيني الأمل، ويذهب بعد أن يترك خلفه الألم.

دخلت فادية إلى غرفتها بخطوات بطيئة ثقيلة لتغير ثيابها وتستعد لشخص يأتي يشاهدها كأنها سلعة يريد شراءها، كم هذا صعب حقا ومؤلم.

استعدت فاديه وجلست في غرفتها تنتظر أن يناديها والدها، كانت اللحظات تمر ببطء شديد كانت تسمع دقات قلبها وكأن أحدهم يضرب على الدف، فقد مرت بهذا أكثر من مرة وكل مرة نفس الخوف، حضر الخاطب وسمعتهم يتحدثون عنه يعمل بشركة ولديه شقه، إنه متيسر الحال ليس طامعا، هدأت دقات قلبها قليلا، ولاحت شبه ابتسامة على شفتيها، ولكنها مازالت خائفة فهي تعرف والدها جيدا لن يمرر الأمر بسلام إلا إذا اطمأن له، بعد قليل نادتها والدتها، خرجت وجلست بعد أن سلمت علي الخاطب وأهله، كانت تنظر للأرض من الخجل ولا تعرف كيف تداري خوفها وقلقها، أما الخاطب كان يلاحقها بنظراته هو ووالدته، كانت نظراته بها إعجاب ورغبه، أما والدته كانت تنظر بتفحص لها وكأنها تريد أن تخترق ملابسها لترى أعضاء جسمها مكتملة وسليمة، أم سيكتشفون بها العيوب بعد شرائها.

مصطفي: أهلا بك يا أحمد يا ولدي.

أحمد: أهلا بك عمي.

مصطفي: أخبرني يا أحمد ما موعد صلاة الظهر؟

احمد بتوتر: لا أحفظ المواعيد ولكن عندما يؤذن المؤذن أصلي.

مصطفي: جيد أنك تصلي ،فالصلاة مهمة لحياتنا، هل تعرف اسم أقرب مسجد لمنزلك؟

احمد بتلجلج: لا اعرف فانا لا أهتم باسم المسجد المهم أن أصلي به.

مصطفي بشيء من الامتعاظ: جيد جيد، هل تعرف أسم السورة الرابعة في الجزء الواحد والثلاثين فكنت أحفظه ولكني نسيت؟

احمد بإحراج: الحقيقة أنا لا أحفظ إلا السور الصغيرة فقط، ولا أعرف اسم السورة التي تسأل عنها.

مصطفي: ولا أظن أنك ستعرف عنها أبدا القرآن ثلاثين جزءاً فقط.

احمد بنزنق: ولكن كيف تسأل عن جزء غير موجود؟

مصطفي: لأنك لو تعرف القرأن لأجبت ببساطة، أظن يا أحمد ليس لدي ما تريد.

والدة احمد وقد ضاقت ذرعاً بكل هذه الاسئلة، واعتبرتها استهانة بولدها لأنها بغير مكانها بنظرها فحاولت عدم هدر كرامة ابنها أكتر: شكرا لك سأزوجه من هي أفضل من أبنتك، هيا بنا يا احمد.

أخذت أبنها وخرجت، جلست فاديه حزينة مكسورة الخاطر، فهي لا تفهم لماذا يفعل أبوها هكذا فهو عريس جيد وليس بطامع كالسابقين، لاحظ والدها ذلك فجلس بجوارها وربت على كتفها بحنان وقال: لا أريدك أن تحزني يا ابنتي فهو لا يستحقك فمن لا يشكر الله على نعمه، لن يصونك أو يسعدك.

فاديه بعدم اقتناع: يا أبي لكنه كان مستعدا لديه كل الامكانيات، وحالته المادية مرتاحة وقد يهديه الله فيما بعد.

مصطفي: قد يحدث ولكنك ستعيشين تعيسة حتى يهديه الله، هذا إن هداه الله، وإن لم يهديه فستكون تعاستك دائمة؛ فالله توعد من يبتعد عنه بأن له معيشة ضنكا، وأنا لا أريد أن تعيشي تعيسة فأنت أبنتي وأنا أحبك أكثر من أي أحد أخر بالدنيا، لا أريد أن أزوجك لأخلص منك ولكن أريد أن أزوجك لأفرح بكِ، أتفهميني يا أبنتي؟

هزت فادية رأسها بالموافقة ودخلت غرفتها، لكنها من داخلها لم تقتنع بكلام والدها، وكانت تشعر أنه يظلمها ويدمر حياتها.

استمر الوضع على هذا الحال، كلما جاءها خاطب يعيد ذات الكرة، ويسأله أسئلة غريبة، كانت فاديه حزينة جدا تشعر بألم شديد مما يفعل والدها، وبدأ النوم يجافيها وتظل تفكر طوال الليل وكان ذلك يسبب شحوب وجهها، فرأتها إحدى زميلاتها بالعمل وشعرت أن بها شيء يؤرقها فسألتها.

ناديه (زميلتها): ما بكِ يا فادية؟ لم أراك حزينة وشاحبة الوجه؟

فادية بتهرب: لا شيء إرهاق فقط من كثرة العمل.

ناديه: لا أظن، أعتقد أن هناك شيء أخر يؤرقك.

تنهدت فادية بألم شديد وامتلأت عيناها بالدموع: والدي يرفض كل خاطب وأخاف أن أبقى دون زواج بسبب رفضه لهم لأسباب غريبة، لا أفهمها.

ناديه: ولماذا يفعل هذا؟

فاديه: يقول لي إنه لا يريد التخلص مني، ولكن يريد الفرح بي.

نادية: لا أعرف قد يكون لا يريد تزويجك كي لا يخسر رابتك؟

فادية بإنكار للفكرة: لا فأنا أدخر راتبي كاملاً، وهو لا يأخذ مني شيء ويحضر لي كل ما أريد حتى مصروفي ومواصلاتي، ويقول لي ادخري هذا المال لك للزمن.

نادية: إذا فولدك لم يخطأ، وأظن أن معه حق.

فاديه بضيق: معه حق! إذا لم يسأل كل الأسئلة التي يسألها، ما أقرب مسجد لبيتك، يسأل عن مواعيد الصلاة، وما أفضل طعام تعده والدتك، ماذا ترتدي اخته، أين مخبز العيش القريب منكم، من يلقي القمامة، كلها أسئلة غريبة ولا أفهمها.

نادية بحيرة: لا أعرف الأمر غريب حقا! وكلها أسئلة غريبة فعلا، لكن لا تغضبي ستحل إن شاء الله.

قطع حديثهما دخول أحد زملائهم الغرفة بعد أن طرق الباب.

فادية: هل هناك شيء أستاذ فهد؟

فهد بنظرات إعجاب: لا، ولكن كنت أريد التحدث إليكِ في موضوع خاص.

فادية بإحراج: لا يوجد بيني وبينك أي مواضيع خاصة.

فهد بنظرات اعجاب: أريد التقدم لخطبتك.

صمتت قليلا من الصدمة فهي لم تتوقع في هذا الأمر، شعرت بحرج شديد وتوتر، ثم أخرجت ورقة وكتبت بها رقم هاتف وقدمته له.

فادية بخجل شديد وتوتر: هذا رقم والدي، يمكنك التحدث إليه.

أخذ الورقة وخرج سعيدا، فكرت نادية أن تساعد صديقتها، فاعتذرت من فادية وخرجت مسرعة، ولحقت بفهد وأخبرته الأسئلة التي يسألها والد فادية، وأن يفكر في أفضل الإجابات لها.

اتصل بوالدها وحدد معه موعد، وأتى حسب الموعد كانت فادية تشعر بتوتر شديد وخوف، جلس فهد مع والدها وكان يبدو عليه التوتر الشديد، لاحظ والدها ذلك، تعجب من إجابته كل الأسئلة كأنه يعرفها مسبقاً، طلب منه مهلة ليفكر ويسأل عنه.

وبعد أن ذهب جلست فادية مع والدها، كانت مترددة وخائفة ولكن شجعت نفسها وسألته.

فاديه بترقب: ما رأيك به يا أبي؟

مصطفي: لا أشعر براحة أشعر أنه حفظ أجوبة الأسئلة، وهذا يقلقني سأستخير الله.

مصطفي محدثاً نفسه: هل من الممكن أن تكون ابنتي قد فعلت ذلك؟ لا فقد ربيتها جيدا، ولم اطعمها حراما، فلن تغدر بأبيها أبدا.

ذهبت فادية إلى غرفتها وهي غاضبة وتقول لنفسها: ماذا يريد مني لما يفعل هذا؟ أ يعقل أنه يكرهني؟ ما عدت أتحمل نظرات الناس لي، وايماءتهم وهمسهم على وضحكاتهم الخفية لأني أصبحت عانسا، لن أسامحك يا أبي، وانفجرت في البكاء وظلت تبكي طوال الليل.

شعر والدها بألمها وفكر أن يكلمها لكنه خاف أن يجرحها ففضل السكوت، ودعا الله أن ينير بصيرتها وتعرف الحقيقة، أخذ قراره

ورفض فهد وأصـــبحت فادية حانقة جداً تشـــعر بالظلم والقهر، فكيف تتحمل أن تشـــعر أن والدها الذي يجب أن يحميها هو من يظلمها، أتى إليها فهد في مكتبها وكانت زميلتها غائبة هذا اليوم دق الباب ودخـل، كان يبدو على وجهها الحزن والإرهـاق الشـــديد، وعينيها حمراء من البكاء.

لاحظ فهد هذا، فأسـتغل الأمر شـاعراً أنها سـتكون هشـة ضـعيفة فقال: لم رفضتني؟

فاديه بحزن وألم: هذا قرار والدي ولا يمكنني الاعتراض.

فهد بخبث: بل يمكنك إن كنتي تقبلين بي.

فاديه: لا أفهم هل ستذهب له مرة أخرى؟

جذب فهد كرسيا وجلس بجوار مكتبها: لا أقصد ذلك، ولكن يمكن أن نفكر في طريقة نجبر والدك بها على القبول بزواجنا.

فاديه بحيرة: ماذا؟!

فهد بخبث: اسـمعي فلتهربي من بيت ابيك، ونتزوج وبهذا سـيرضـخ لنا.

فاديه بصدمة: ماذا تقول؟! أهرب ونتزوج؟!

ثم ســـكتت قليلا... وأكملت: معك حق وبهذا ســـيوفر لك بعض النفقات مثل الفستان والزفاف وأشياء من هذا القبيل.

فهد بمكر: معك حق وقتها يمكن أن اجعله يفعل ذلك.

فادية ببعض التفكير والحيرة: كيف أجبت والدي عن كل الأسـئلة دون خطأ؟

فهد: زميلتك في المكتب أخبرتني، فهي تحبك وتريد مصلحتك.

فادية: صحيح معك حق، ستعرف جوابي غدا.

كانت فادية مصـدومة من كلام فهد، وفهمت أن والدها علي حق في رفضـه له، فلا يمكن لشـخص يحب انسـانة أو حتي يهتم لأمرها أن يطلب منها طلب كهذا، فقررت أن تبتعد عنه وسـتبدأ بالمكان الذي يعمل به، وأيضـا عن صـديقتها التي أفشـت سرها، حتي لو كان مقصـدها خير، فحسـن النية لا يعفي من الخطأ، طلبت نقلها من هذا المكان وأثناء عودتها للمنزل رأت الشاب الذي تقدم لها من قبل وكانت حزينة لرفض والدها له، كان يسـير مع زوجته، شـعرت بألم شـديد وامتلأت عينيها بالدموع، فكانت سـتكون معه وتكون أم أطفاله، ولكن عندما رأته يعاملها معاملة سـيئة، ويتعالى عليها وينهرها، فهمت أن والدها كان محقا.

فادية بصوت خافت: الحمد لله أشكرك أبي فلولاك لكنت مكانها.

تنهدت بألم ووجع ومسـحت دموعها التي تتسـاقط رغماً عنها، ونظرت لدنيا التي ترمقها بنظرة حزينة مليئة بالمرارة والألم.

فادية ببعض الأمل وابتسـامة رضى: خلاصـة الأمر أن العانس كما تسمونها، ليست فاشلة لعدم حصولها على عريس وإنما هي ناجيه، نجت من مصير سيئ وقعت به كثير من الفتيات اللاتي تزوجن فقط لتهربن من كلمة عانس، ومن نظرات الشـماتة من البعض، ونظرات الحسرة من البعض الآخر.

دنيا وقد أدركت معنى كلام فادية: ما تقصدينه أن العيب بمجتمعنا لأنه ينظر لها بنظرة مؤلمة، ويتهمها وهي بريئة، فعلا فهي لم ترتكب أي ذنب فلو ذهبت فتاة واختارت شابا وطلبت منه الزواج سيتهمونها بالفجر، وإن لم يأتها خاطب فهي قبيحة، وإن أتاها الخطاب وكانوا سيئين فهي تتكبر، مسكينة المرأة في مجتمعنا.

فادية تنهدت بألم: للأسف نعم، لقد قصصت عليك قصتي لأنكِ قولتي انكِ تقومين بدراسة، كل ما أطلبه منك أن تنشريها لتراها كل فتاه كي لا تعيش نفس الألم والمرار، فقد تعلمت الدرس جيدا، وأنا أعيش الأن مع والدي بسعادة، فقد فهمت معنى كلمته أريد الفرح بكِ لا التخلص منكِ، وكلي يقين بأن الله سيأتي إلى بالخير كله سواء في الدنيا أو الأخرة.

ذهبت كل واحدة منهم في طريقها وهي مقتنعة أن نظرة المجتمع الظالم هو سبب معاناة كل فتاة مثل فادية.

****

عادت فادية إلى الشركة وأكملت عملها وعادت الى منزلها، أعدت الطعام لها ولوالدها، وبعد أن تناولاه جلست حزينة مجروحة تشعر بألم شديد فهذا اليوم كان يوما مؤلما، لاحظ والدها عليها الألم، فجلس بجوارها وربت على كتفها وقال بحزن: لا تحزني يا ابنتي فما عند الله خير.

فادية بألم وهي تمنع دموعها من السقوط: لست حزينة لكني مجروحة شعور صعب أن تكون فرجة لغيرك أبنة المدير تعد بحثا عن العنوسة، وأتت لتسألني عن تجربتي.

اخذ مصطفى نفسا عميقا وأخرجه بألم يكاد يقطع صدره: سامحيني لو كنت أنا ســـبب ذلك، ولكني ما كنت لأزوجكِ لرجل يهينك ويجرحك.

فادية بألم: لســـت غاضـــبة منك يا أبي فأنا متأكدة أن ما فعلته في صـــالحي، ليس الزواج في حد ذاته الهدف، ولكن الهدف أن أكون سعيدة، وأنا سعيدة وراضية عن حياتي.

مصطفي بحزن: هداك الله يا ابنتي وأصلح لكِ الحال.

فادية برضا ممزوج بحزن وألم: أحمد الله كل يوم أن رزقني أباً مثلك يا أبي يخاف علي ويحميني، كلما أرى النســـاء اللاتي تعيشـــن في بيت زوجها مهانة أحمد الله أن رحمني من ذلك المصـــير، أعلم أن ليس كل الرجال ســـيئين ولكن كان نصـــيبي أن من تقدم لخطبتي غير مناسبين، فالحمد لله أنك بجانبي وتدعمني.

مصطفى قبل رأسها واحتضنها بحنان: وأنا أحمد الله أن رزقني أبنة مثلك..